الحركة الفكرية في العراق
في عهد الوالي مدحت باشا ١٨٦٩ – ١٨٧٢

م.د. أمينة داخل شلش التميمي

المقدمة

يُعد مدحت باشا من ابرز رواد الحركة الاصلاحية في الدولة العثمانية لما يتمتع به من كفاءة ادارية وحنكة سياسية وفكر رفيع المستوى في بث روح التجديد والتحديث ، وعند توليه حكم العراق عام (١٨٦٩ – ١٨٧٢) انتهج سياسة اصلاحية تهدف إلى تحسين واقع العراق المتردي وجعله يلحق بركب الحضارة والتقدم ، وعلى الرغم من مدة حكمه الوجيزة الا انه انجز اصلاحات جذرية شاملة شكلت نقطة تحول في تاريخ العراق الحديث وبعد تسنمه الحكم في العراق بدأت بوادر النهضة والحركة الاصلاحية تظهر في مختلف الاصعدة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفكرية ، وكان اهتمامه الكبير في الجانب الثقافي والفكري وذلك بإنشائه عدد من المدارس مما ادى إلى زيادة عدد المتعلمين ونشر الوعي الثقافي بين ابناء المجتمع العراقي ، كما اهتم بالطباعة والصحافة وبالتالي ساعدت هذه الامور على تحفيز العراقيين وجذب انتباههم وتنوير عقولهم وتشجيعهم على اكتساب المعارف الجديدة وتقبل الافكار والمعتقدات الحديثة .

قسم البحث إلى مقدمة ومحورين وخاتمة تضمن المحور الاول نشأة مدحت باشا في بيئة ثقافية دينية علمية برعاية والده القاضي حافظ محمد اشرف الامر الذي ادى ان يصقل شخصية مدحت باشا الطموحة والمتطلعة إلى التنظيم والاصلاح وادخال الحداثة في ولايات الدولة العثمانية اما المحور الثاني فقد تضمن تطور الحركة الفكرية والثقافية في العراق عند تولي مدحت باشا الحكم فيه ، الذي اهتم وبشكل كبير بالجانب الفكري والتعليمي وعمل على فتح عدد من المدارس المتميزة مما ادى إلى ازدياد عدد المتعلمين بعد ان كانت الامية منتشرة في العراق قبل تسنمه الحكم . كما اهتم بالطباعة والصحافة وانشأ صحيفة الزوراء التي كان لها دوراً كبيراً في بث الوعي الفكري والثقافي لدى العراقيين ودفعتهم إلى اكتساب العلوم والمعارف الجديدة . مما ادى إلى تحديث المجتمع العراقي .

المحور الاول: ولادته ونشأته وبواكير نشاطاته السياسية .

ولد احمد شفيق في اسطنبول عام ١٨٢٢[١] ، والده هو الحاج حافظ محمد اشرف الذي كان عالماً دينياً ، وقد تولى منصب القاضي في العديد من ولايات الدولة العثمانية ، وتميز بالاستقامة والنزاهة والميل إلى الاصلاح ، ولذلك حرص على ان ينشأ ولده احمد شفيق نشأة دينية وبدأ يحفظه القرآن الكريم في سن مبكر[٢] ، ولقب احمد شفيق بـ (الحافظ) وهو لقب يطلق على من يحفظ القران الكريم من الاتراك ، ثم ادخله إلى ديوان همايوني[٣] عام ١٨٣٤، فتعلم الخط الديواني الخاص وكانت العادة الجارية هي تسمية من يتخرج من هذا الديوان بأسم جديد فأطلق على احمد شفيق اسم (مدحت)[٤] .

انتقل مدحت برفقة والده إلى الولايات التي تولى القضاء فيها يتعلم في مكاتبها ، وبعد عودة والده إلى اسطنبول الحقه في احدى دوائر الحكومة العثمانية ، ثم بدأ يتعلم اللغات ومنها الفارسية والعربية واتقن النحو والفقه[٥] ، وبعدها تعلم اللغة الفرنسية لأن الدولة العثمانية كانت تفرض على موظفيها تعلم اللغة الفرنسية[٦] .

ثم دفعه طموحه في زيادة معارفه واطلاعه على التطورات الحاصلة في عواصم الدول الاجنبية إلى طلب اجازة لمدة ستة اشهر ليغادر اسطنبول قاصداً باريس وفيينا ، وكان هدفه من هذه الزيارة هو الاطلاع على الاوضاع الادارية والاقتصادية والثقافية ولم يكن هدفاً سياحياً فقط[٧] . وعند عودته من اسطنبول تدرج في سلم الوظائف ، الامر الذي جعله يوثق علاقاته بذوي الشأن من رجال الدولة . وفي عام ١٨٤٢ عمل مساعداً في تحريرات الشام ، ومن ثم كاتب في ديوان سامح باشا بولاية قونيه عام ١٨٤٥ ، وبعدها اصبح رئيساً للقلم في الباب العالي ، وعام ١٨٥٢ عهد اليه برئاسة لجنة تفتيشية في ايالتي دمشق وحلب ، ونجح في مهمته بشكل باهر وحظي باحترام رؤسائه .. ولفت هذا النجاح رجال الدولة اليه وخاصة رشيد باشا الذي عينه في منصب رئيس مجلس الولاة وعين عام ١٨٦٠ على ولاية نيش وير ستند وقام بإصلاحات داخلية وعمل على تعديل نظامها كي لايتم اهمالها[٨] . وعندما حصل على لقب (باشا) في عام ١٨٦١ استدعاه فؤاد باشا ناضر الخارجية ليشارك في وضع بنود نظام الولايات ، ثم تولى ادارة ولاية (الطونة) وبدأ يطبق فيها نظام الولايات الجديد الذي نجح نجاحاً باهراً مما شجع الصدر الاعظم (علي باشا) [٩] لذلك قرر الاخير مع (فؤاد باشا) احداث مجلس وديوان الاحكام العدلية واصدر الادارة سنية قاضية بتعين مدحت باشا لرئاسته ، وفي عام ١٨٦٨ استدعي مدحت باشا إلى اسطنبول ليتولى رئاسة المجلس الذي انشئ حديثاً ، فبدأ بترتيب مجلس شورى الدولة وتنظيمه وكان هذا المجلس يختص بمهمة سن الانظمة والقوانين وتدقيق المعاهدات والاتفاقيات الدولية ، وبذلك اصبح مدحت باشا من اهم رجال الدولة في تلك المرحلة ، وامن مدحت باشا بأن الاصلاح البرلماني هو اصلاح لحال الدولة السيئة وبدأ بخطواته نحو الاصلاح التي تمثلت في جعل كبار موظفي الدولة مسئولين عن اعمالهم امام الباب العالي ، الامر الذي اثار صيحات المعارضة لدى ذوي

الافكار الرجعية الذين رأوا ان هذه الخطوات هي تهديد لنفوذهم[١٠] ، كذلك عملوا على اثارة شكوك السلطان العثماني بمدحت باشا في انه يرغب في اقامة (نظام جمهوري) وبدأ الباب العالي . يصدر التعليمات والانظمة دون عرضها على مجلس شورى الدولة، الامر الذي اضطر مدحت باشا للاستقالة من منصبه حسماً للخلافات التي حدثت بينه وبين الصدر الاعظم (علي باشا) عام ١٨٦٩ ، وعين بعد استقالته مباشرة ولياً على ولاية بغداد[١١] .

وتأسيساً على ما تقدم يتبين لنا بأن مدحت باشا قد تربى تربية دينية ونشأ في بيئة علمية ثقافية، ونال نجاحاً كبيراً في جميع المناصب التي تولاها والتي جسد طموحه فيها بالتنظيم والاصلاح وادخال التحديث إلى الدولة العثمانية اسوة بالدول الغربية .

المحور الثاني : تطور الحركة الثقافية والفكرية في عهد الوالي مدحت باشا في العراق (١٨٦٩ – ١٨٧٢)

أ – **التعليم :** من ابرز المجالات التي تميز فيها مدحت باشا عن اسلافه من الولاة الذين حكموا العراق ، هو المجال الثقافي والتعليمي ، اذ كان الولاة من قبله لايهتمون كثيراً بإدخال النظم التعليمية الحديثة التي كانت مستخدمة في اسطنبول منذ وقت ليس بالقصير ، فأهتم بإنشاء المدارس الحديثة التي تخدم بيئة العراق وحاجته بصفة خاصة .

ومن ابرز المدارس الحديثة التي انشأها مدحت باشا هي[١٢] :

١- المدرسة الرشدية (العسكرية) : انشأها عام ١٨٦٩ ، وقبل فيها الطلاب المتخرجون من المدارس الدينية ، ومدة الدراسة فيها اربع سنوات يدرس في اثنائها الطلبة اللغتين العربية والتركية والتاريخ والجغرافية والخط والدين . وكان المدرسون فيها من الاتراك .

٢- المدرسة الاعدادية العسكرية : ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات بعد المرحلة الرشدية ويحق لخريجي هذه المدرسة الالتحاق بالكلية العسكرية في اسطنبول ، اذ يتخرجون منها ضباطاً .

٣- مدرسة الفنون والصنائع وتم تأسيسها[١٣] عام ١٨٦٩ ، وخصصت للأيتام المسلمين الذين لامعيل لهم ، وكانت اكثر المدارس فائدة في العراق اذ يتعلم الطلاب فيها الصناعة والحدادة والتجارة وصناعة النسيج ، والخياطة والاسكافية .

وجعل هذه المدرسة في خدمة البيئة التي كانت في اشد الحاجة إلى الايدي الفتية والصناعية المدربة[١٤] ، ونجح في ان يغطي معظم مصروفات المدرسة من دخل انتاجها ثم الحق عمله هذا بإنشاء مطبعة والتي عمل فيها الطلبة وتدربوا على هذه الصناعة الهامة ، وبعد تخرج الطلبة من هذه المدرسة تقدم لهم خزانتها قرضاً مالياً

لتعينه في كسب عيشه بالحرفة التي تدرب عليها ، وقد باشر الدراسة فيها حوالي (١٤٤) تلميذ من خريجي الكتاتيب عام ١٨٧٠ ، وكانت مدة الدراسة فيها خمس سنوات[١٥] .

ب- الطباعة والصحافة :

يُعد الوالي مدحت باشا في طليعة الولاة الذين حرصوا على ادخال الطباعة الحديثة إلى العراق ، اذ قام بجلب مطبعة ميكانيكية من باريس تدار بالبخار وتنتج (٣٥٠٠) ورقة في الساعة واطلق عليها اسم (مطبعة الولاية) ، وقد ادت دوراً كبيراً في خلق الوعي الفكري والاجتماعي في العراق[١٦] ، واوكلت مهمة ادارتها لطلاب مدرسة الصنائع وزودت المدارس بالكتب الحديثة المطبوعة ، وقامت بنشر الافكار المختلفة عن طريق الصحف والسالنامات الرسمية[١٧] .

كان الشعب العراقي يرزح تحت نير الحكم ، الاستبدادي العثماني قرابة اربعة قرون متتالية . وقاوم رجالاته سياسة التتريك بشتى الوسائل للحفاظ على لغة الضاد ، ومما ساعد على ايقاظ مشاعر العراقيين في تلك الظروف الحالكة هو قيام مدحت باشا عند توليه الحكم في بغداد بإصدار اول صحيفة في بغداد اسماها بـ (الزوراء) وقد صدر العدد الاول منها في ١٥/حزيران عام ١٨٦٥[١٨] ، وقد جاء في صدر صفحتها الاولى مايلي :

هذه الجريدة تطبع في الاسبوع مرتين يوم السبت ويوم الثلاثاء وهي حاوية لكل نوع من الاخبار والحوادث الداخلية والخارجية . وقد صدرت باللغتين التركية والعربية بالحجم المتوسط وبثمان صفحات[١٩] .

كانت هذه الصحيفة تهتم بنشر اخبار الوالي وبعض ما يجري في الولايات الاخرى ، وحركات العشائر والتنظيمات الداخلية والاحوال الاقتصادية[٢٠] . فضلاً عن الارشادات العامة الاجتماعية والصحية وتحذيرات للموظفين وتغطية انباء العراق الثقافية والسياسية والاعلانات واجراءات المحاكم ، وكانت اغلب اخبارها تصل من خلال التلغرافات . وضمن هذا السياق صدرت في الموصل جريدة رسمية باللغتين العربية والتركية سميت بـ (الموصل) [٢١] . اما صحف الطوائف غير الاسلامية فقد صدرت اولى الصحف اليهودية (وبيرميشارم) عام ١٨٧٠ وكانت نصف شهرية[٢٢] .

وكان من الطبيعي ان تسهم الصحف العربية في بغداد والاستانة في فتح افاق جديدة امام النبوغ الادبي العراقي ونشر الوعي الثقافي بين ابناء المجتمع العراقي ، اذ اصبحت بغداد فيما بعد تزود الاستانة بحاجتها من ذوي المهارات الصحفية من اهل العراق بعد ان صقلهم العمل في صحف بغداد[٢٣] .

الخاتمة

مما تقدم في الدراسة نستشف مايلي :

- ان مدحت باشا تربى في بيئة دينية علمية ثقافية برعاية والده فصقلت شخصيته الطموحة والتواقة إلى التنظيم والاصلاح وادخال الحداثة في الدولة العثمانية .
- كفاءة مدحت باشا ونجاحه في المناصب الادارية التي انيطت به مكنته من الحصول على مناصب حساسة في الدولة العثمانية كرئاسة مجلس الشورى ومن ثم توليه ولاية بغداد عام ١٨٦٩ .
- قيام مدحت باشا بالعديد من الرحلات خارج اسطنبول وخاصة إلى الدول الاوربية مكنه من الاطلاع على طرق هذه الدول في ادارة شؤون مواطنيها ، كما عززت هذه الرحلات انبهاره واعجابه بإنجازات الحضارة الغربية الامر الذي دفعه إلى تطبيق هذه الحداثة في الولايات التابعة للدولة العثمانية .
- تولى مدحت باشا ولاية بغداد عام ١٨٦٩ وهي في وضع متدهور في جميع المجالات ، الا انه قام بأعمال اصلاحية جذرية في مدة حكمه الوجيزة والتي عكست مدى كفاءته الادارية وحنكته السياسية اذ تمكن من نقل العراق إلى المدنية الحديثة .
- اهتمامه الكبير بالجانب الفكري والثقافي والتعليمي والعمل على تطويره ادى إلى فتح عدد من المدارس وبالتالي ازدياد عدد المتعلمين من ابناء الشعب العراقي ونشر الوعي الثقافي والفكري لديهم الامر الذي حفزهم للتفاعل مع الدول الاوربية المحدثة ومواكبة التطور الذي وصلت اليه . وتمكن من اخراج المجتمع العراقي من صيغته الدينية التي هيمنت عليه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر واثمرت تلك المرحلة الانتقالية على تحديث المجتمع العراقي .
- حرص مدحت باشا على الاهتمام بالطباعة والصحافة وادخل اول مطبعة ميكانيكية إلى العراق كما اصدر اول صحيفة وهي (الزوراء) وقد ادى ذلك إلى وبشكل كبير إلى بث الوعي الفكري والثقافي لدى العراقيين وفتحت اعينهم على قضايا لم تكن مألوفة من قبل في المجتمع العراقي . فحركت افكارهم بما طرحته من مواضيع سياسية واجتماعية وثقافية وكان من الطبيعي ان تعمل هذه المواضيع على جذب انتباه العراقيين وتنور عقولهم وتشجعهم على اكتساب معارف جديدة وعلى تقبل الافكار والمعتقدات الحديثة .

المصادر

اولاً : القران الكريم

ثانياً : الكتب العربية والمعربة :

١- احمد أمين ، زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، ط١ ، بيروت . د.ت .

٢- ايناس سعدي عبد الله ، تاريخ العراق الحديث ، ١٢٥٨ – ١٩١٨ ، ط١ ، مكتبة عدنان، ٢٠١٤ .

٣- جميل موسى النجار ، الادارة العثمانية في ولاية بغداد ، ط١ ، مكتبة مدبولي ، القاهرة، د.ت .

٤- أمين المميز ، بغداد كما عرفتها ، شذرات من ذكريات ، بغداد ، ١٩٨٥ .

٥- عبد العزيز سليمان نوار ، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا ، ط١ ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٦- قدري قلعجي ، مدحت باشا ابو الدستور العثماني وخالع السلاطين ، ط١ ، دار الملايين، مصر ، ١٩٤٧ .

٧- مدحت باشا ، مذكراته ، تعريب : يوسف ك بك حتاته ، مصر . د.ت .

ثالثاً : الرسائل الجامعية :

١- سليماني ايمان ، الوالي مدحت باشا ونشاطه في الدولة العثمانية بين العمالة والاخلاص (١٨٢٢ – ١٨٨٤) رسالة ماجستير (غير منشورة) مقدمة إلى كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ، جامعة محمد بوضياف ، ٢٠١٩ .

٢- منيرة هيشر ، العراق في عهد مدحت باشا ١٨٦٩ ، ١٨٧٢ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، مقدمة إلى كلية العلوم الانسانية واجة جامعة محمد خيضر بسكرة ، ٢٠١٩ .

رابعاً : المجلات :

١- هيثم محي طالب الجبوري وزينب حسن الجبوري ، اثر حركة الاصلاح العثماني في تطور الحركة الفكرية في الوطن العربي في العهد العثماني المتأخر ، مجلة جامعة بابل ، العلوم الانسانية ، المجلد (٢٣) / العدد (٣) السنة ٢٠١٥ .

خامساً : منظومة شبكة الانترنت :

١- ابراهيم الحيدري ،/ بداية التحديث في العراق ، ينظر الموقع الالكتروني : http://elaph.cam/amplwep/elapwrtely.٢٠٠٩ .

٢- عمر ابراهيم الشلال ، التطورات الثقافية في العراق في العهد العثماني الاخير ١٨٦٩ – ١٩١٤ ، ينظر الموقع الالكتروني التالي: http://dergipak.org.tr/en/download/ortici/file .

الهوامش

١. مدحت باشا ، مذكراته ، تعريب :- يوسف كمال بك حتاته ، ط١ ، مصر ، د.ت ، ص٤ .
٢. منيره هيشر، العراق في عهد مدحت باشا (١٨٦٩ – ١٨٧٢)، رسالة ماجستير (غير منشورة) مقدمة إلى كلية العلوم الانسانية والاجتماعية /جامعة محمد خيضر بسكرة ، ٢٠١٩ ، ص٢٤ .
٣. ديوان همايوني : وهو بمثابة مجلس الوزراء وكان السلطان العثماني هو من يرأسه ، لكن بعد ذلك تولى الصدر الاعظم رئاسته ، ينظر : سهيل صابان ، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ، د.ط ، الرياضة ، ٢٠٠٠ .
٤. احمد امين ، زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، د.ط ، بيروت ، د.ت ، ص٣١ .
٥. منيرة هيشر ، المصدر السابق ، ص٢٤ .
٦. سليماني ايمان ، الوالي مدحت باشا ونشاطه في الدولة العثمانية بين العمالة والاخلاص (١٨٢٢ – ١٨٨٤) ، رسالة ماجستير (غير منشورة) مقدمة إلى كلية العلوم الانسانية والاجتماعية / جامعة محمد بوضياف ، ٢٠١٩ ، ص٨ .
٧. المصدر نفسه ، ص٨ .
٨. جميل موسى النجار ، الادارة العثمانية في ولاية بغداد ، ط١ ، مكتبة مدبولي ، القاهرة (د.ت)، ١٤٦ .
٩. قدري قلعجي ، مدحت باشا ابو الدستور العثمانية وخالع السلاطين ، ط١ ، دار الملايين ، مصر ، ١٩٤٧ ، ص٩ .
١٠. سليمان ايمان ، المصدر السابق ، ص١٣ .
١١. جميل موسى النجار ، المصدر السابق ، ص١٤٨ .
١٢. هيثم محي طالب الجبوري وزينب حسن عبد الجبوري ، اثر حركة الاصلاح العثماني في تطور الحركة الفكرية في الوطني العربي في العهد العثماني المتأخر ، مجلة جامعة بابل العلوم الانسانية / المجلد ٢٧ / العدد (٣) ، السنة ٢٠١٥، ص١٤٥١ .
١٣. عبد العزيز سليمان نوار ، تاريخ العراق الحديث ، من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا ، ط١ ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص٣٨٢ .
١٤. هيثم محي طالب الجبوري وزينب حسن الجبوري ، المصدر السابق ، ص١٤٥٢ .
١٥. عبد العزيز سليمان نوار ، المصدر السابق ، ص٣٨٣ .

١٦. ابراهيم الحيدري ، بدايات التحديث في العراق ، ينظر الموقع الإلكتروني التالي :
http://elaph.com/amplwep/elapwrtely.٢٠٠٩ .
١٧. امين المميز ، بغداد كما عرفتها ، شذرات من ذكريات ، بغداد ، ١٩٨٥ ، ص١٧٣ .
١٨. ايناس سعدي عبد الله ، تاريخ العراق الحديث ١٢٥٨ – ١٩١٨ ، ط١ مكتبة عدنان ، ٢٠١٤ ، ص٤٤٨ .
١٩. عمر ابراهيم الشلال ، التطورات الثقافية في العهد العثماني الاخير ١٨٦٩ – ١٩١٤ ، بحث منشور على الموقع الالكتروني الاتي :
http://dergipak.org.tr/en/download/ortici/file .
٢٠. ايناس سعدي عبد الله ، المصدر السابق ، ص٤٤٨ .
٢١. عبد العزيز سليمان نوار ، المصدر السابق ، ص٣٨٥ .
٢٢. ايناس سعدي عبد الله ، المصدر السابق ، ص٤٤٨ .
٢٣. عبد العزيز سليمان نوار ، المصدر السابق ، ص٣٨٦ .